

اتقوا غضبة الشعب!

للأستاذ محمود محمد شاكر



أجأت قضية مصر والسودان في مجلس الأمن إلى يوم الثلاثاء التاسع من سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، بعد أن تمت بريطانيا بالخذلان الذي كان مثله أبعد شيء عن بالها منذ عشر سنوات وحسب . فقد تعودت بريطانيا أن تأمر أو تدرّس فيطاع أمرها أو دسها ، وتخرج ظافرة من كل معركة تدور بينها وبين أمة من الأمم التي ابتليت بشرها الذي لم تنطفيء له جرة منذ نجت قرون هذه الدولة في تاريخ العالم الحديث . ونحن نسأل الله أن يتم الحيلة على هذه الدولة الطاغية بإهيار نظامها الاقتصادي ، ليخلص العالم من الأخطبوط الفاجر الذي ضم في أحشائه وبين جوارحه دولاً برمتها من الهند إلى العراق إلى مصر والسودان إلى جنوب أفريقية — إلى عالم كان يتمدح شعراؤها بأن الشمس لا تغيب عن ملكه ، وأنها هي التي حملت أمانة الجنس الأبيض و (عبء الرجل الأبيض) في تحضير الأجناس الملونة ، أي استعبادها وظلمها ، وإغراء فرنسا وبلجيكا وهولندا وسواها من أقزام الدول باستعباد جزء من هذه الشعوب ، تسوّمها الخلف بكل نذالة تدخل في طوق هذه الأمم .

إن مجلس الأمن هو اليوم بين اثنتين : إما أن يشهد العالم كله على أنه أقيم على حق ، وأنه حافظ وأزع يدهى الطغاة عز الإيفال في طغيانهم ، وإما أن يشهد العالم كله على أنه سوق حديثة لارقيق والخناسة أقيمت لتتاجر بعباد الله بلاحياء ولاورع . فكان تأجيل قضية مصر في هذه المرة ، بعد المناقشات التي دارت فيه دليلاً على أن مصر والسودان قد استطاعت شيئاً ما أن توقف طرفاً من ضمير هذا المجلس ، ومن ضمير الأمم التي اشتركت فيه ، واستطاعت أيضاً أن تجعل بريطانيا مغمورة في ركاب القضايح والفظائع التي ارتكبتها في مصر والسودان ، والتي تعسر على المضي في ارتكابها بكل جرأة لا تستحي .

ونحن نحب أن نثني ثناء خالصاً من قلوبنا على الرجل المصري

السوداني ، الذي لم يزعه تهديد بريطانيا وترويعها ، ولم ينل من قلبه الخوف ، ولم تنثنه عن الهدف الأعظم رحيل ولا أشراك ولا جدال ولا تقرير ، فانطلق يبين عن أهداف مصر والسودان وعن حقوقها وعن البلاء الذي نزل بها بيانا شفي صدور المصريين والسودانيين جميعاً . إنني لم أعجب بهذا الرجل لأنه سياسي بارع ، ولا لأنه قانوني ضليع ، ولا لأنه خطيب مغوّه ، ولا لأنه رئيس حكومة — كلا بل لأنه أول رجل بعد أن ذهب مصطفى كامل — وقف وحده في عرين الأسد البريطاني ليسمع الدنيا كلها أن هذا الأسد البريطاني قد اعتدى عليه وبني وطني وظلم وتجبر ، وفعل الأفاعيل الخبيثة التي أراد بها استعباد مصر والسودان . إنه الرجل المسئول الوحيد الذي قام في مجلس دولي يطمئن بريطانيا العظمى أطمئنا متداركاً غير راحم ولا مشفق ولا هياب ، وهو يعلم أنه يطمئن بهذا الطمن دولاً كثيرة من أعضاء هذا المجلس . لقد كان محمود فهمي النقراشي رجل مصر ، لأنه كان وطنياً يتكلم بلسان الجروح التي مزقت جسد أمته ، لا بلسان السياسي المحتال الذي يريد أن يرضى هذا ويتجنب غضب ذاك . وهذا وحده هو السر الأعظم الذي جعل قضية مصر والسودان أعظم قضية عرضت على مجلس الأمن وأخطرها ، وهذا وحده هو الذي أوقع الخاذل في الصفوف التي جمعتها بريطانيا ، وظنت أنها سوف تنصرها في باطلها نصرأ مبيناً ترجع بعده مصر والسودان خاشعة خاضعة تحت ظلال الخذلان الذي أمّلت بريطانيا أننا سوف نغني به .

لقد ضرب النقراشي مثلاً خالداً في تاريخ مصر الحديث ، فدل بذلك على أنه رجل يركن إليه في لحظات الأحداث . فقد مرت على مصر والسودان حقبة كان الذي يقول فيها يمثل الذي قاله النقراشي في مجلس الأمن بعد رجلا غمبولاً خيالياً تسخر منه الصحف والمجلات ، وتزدرية جماهير من المتدوعين ، ويتخذ هدفاً لكل دعاية تجري بها السنة الهازلين من أحلاس النوادي والقهوات . إن هذا الرجل جدير بأن يرفع اسمه منذ اليوم إلى حيث لا تنال مكانه أسماء الدجالين والمخادعين والمناققين الذين ظهروا في تاريخ السياسة المصرية منذ سنة ١٩١٩ إلى يوم الناس هذا . لحسبه فخراً ومكانة أن يكون هو الذي استطاع أن يجمع إرادته وعزمه وحزمه ، فلم يصرفه خوف أو إغراء عن تحقيق كلمة

السودان . لقد كان المذمر متسماً لاسمى 'سواء إن قال بمثل الذى يقول به . ومتى يقول هذا الرجل هذا الكلام ؟ بقوله فى ساعة الحرب التى شنها مصر والسودان على بريطانيا ا

إننا لا نبالي كثيراً ولا قليلاً بما يقوله هذا الرجل وأمثاله ، وليس من هنا أن نقف عنده لنفند ، بل هنا أن نبين أن وراء كلامه معنى آخر ، هو أن بريطانيا لما أحست بتباشير الخذلان الذى سوف تناله فى مجلس الأمن ، وعرفت أنها لن تستطيع أن تواجه العالم بالأبطال التى كانت تواجه بها المفوضين فيربونها ويخشون بأسها ، فلجأت عندئذ إلى قدماء صنائعها فى وادى النيل ليخذلوا قلوب الناس ويخوفهم ويوقعوا بينهم يفتونهم الفتنة ، ويكون ذلك فتناً فى عهد النقراشي ، وتمهيداً لانقلاب يحدونه مرة أخرى بالقهر والتهديد ، وبخيانة من يستحلى موارد الحياة لبلاده — لمال ياله ، أوجه يحرزه ، أو أبهة يخال فيها ، أو أمل يعنى بإدراكه على يد بريطانيا صاحبة النعم الجزيلة والآلاء التى لا تنفد ا

إن بريطانيا تبذل الآن كل جهدها فى رد مصر والسودان عن الطريق الذى لا طريق غيره لمن أراد أن ينال حقه ، وأن يحمل هذا الحق ذكراً مذكوراً فى قلوب الأبناء والأحفاد حتى لا تنطمس معالاه ، وحتى لا ينخدع الناس عنه بقليل مدلس عليهم كما حدث فى تاريخ مصر والسودان منذ سنة ١٩٢٤ : إلى هذا اليوم ، حتى بلغ البلاء أن صار الناشئة يقولون : « مصر والسودان دولة مستقلة » ، وكلهم ينلم ويرى ويشهد بمينية النزاة فى ثيابهم يروحون ويندون فى الشوارع والطرق ، ويتشون دور الملاحى ويقيمون المدارس المادية لروح مصر والسودان فى قلب بلادنا ، ويحمون لصوص الأجانب ، وينصرونهم على أبناء البلاد بكل ما استطاعوا .

ومصر والسودان لن ترند مرة أخرى إلى طريق « المفاوضة بين مصر وبريطانيا » ولن ترند إلى تطبيق مسألة السودان وجعلها مسألة قاعة على حيالها ، ولن ترند إلى الاعتراف بالورقة الباطلة التى كتبت فى سنة ١٨٩٩ لتشارك بريطانيا مصر فى حكم السودان . فإذا كان صدق باشا قد غم من الثقة الذى أوعز إليه أن هذه الخطة هى الباقية ، وأنها هى التى سنصير إليها بعد

مصر والسودان الخالدة ، وعن إعلان هذه الكلمة فى أرجاء الدنيا ، وهى : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » .

ويقابل هذا الرجل الصادق رجال آخرون من صنائع بريطانيا — كانوا من صنائعها القدماء منذ تحركت مصر والسودان فى سنة ١٩١٩ تطالب الدولة الباغية باستقلالها ، وتريق دماءها وتبذل مهجها ، ويأتى أحدهم فيكون سيفاً مسلحاً على اعتناق إخوانه المصريين يتمصف بهم عصف الجبار المارد ، وإن كان هو فى نفسه ليس بجبار ولا مارد إلا كما كان أبو حية يسمى قضيب الخشب الذى يحمله سيفاً هندوانياً — وإنما كان جبروته وتمردته يومئذ من جبروت بريطانيا وتمردتها — فهو دمية تلعب بها لا أكثر ولا أقل .

لقد قام النقراشي يطن ملا الأم فى نواحي الأرض ، أن هذه ساعة فاصلة فى تاريخ مصر والسودان ، وأنه قد عزم على طرد الانجليز من بلاده ، وأنه لن يقبل مهادنة ، ولا مفاوضة ولا مراوغة بعد اليوم ، وأن بلاده توشك أن تنفجر ، وأن البلاء على الأبواب لن يمنعه ضغط الدول الأعضاء فى مجلس الأمن ، وأن مصر والسودان قد أبت إلا طرد بريطانيا من بلادها كلها بلا مهلة ولا ترث ولا مواءيد . ووقف مندوب بريطانيا بمصر إصرار البغاة الطغاة على أن المهادنة تحول له احتلال أرضنا ، ويستدل مرة بعد أخرى بالذى كان فى مفاوضات صدق — ييفن وكأنه يريد أن يقول إن صدق قد قبل ما يأتى هذا الرجل — يعنى النقراشي — فينكره ويرفضه ، وبكذب على مصر والسودان فيدعى أنها تريد طرد بريطانيا وجلاءها جلاء تاماً ناجزاً عن أرض وادى النيل كله ، على غير ما تدل عليه مفاوضات صدق — ييفن .

وفى خلال ذلك يقف صدق باشا الذى اتخذته اليوم بريطانيا حجة على مصر ، ليقول إن خير الوسائل لنيل حقوق مصر والسودان من بريطانيا هى المفاوضة ، كأن هذا الرجل لم يعلم بعد أنه ظل يروح ويندو ويتلاعب هو وتلاعب بريطانيا ، وكانت العاقبة أن أفضى الأمر به إلى الاستقالة ، بعد التأكيد الخبيث الذى كذبت به بريطانيا كل شئ . قاله فى تفسير بردتوكول

انهزامنا في مجلس الأمن ، وأنه لا يحصى لمصر والسودان من
المفاوضة قبل الجلاء عن وادي النيل كله — فقد كذب الذي
أوعز إليه بذلك . ولعلم صدق باشا أن الرائد لا يكذب أهله ،
وأنا نحن اصدق حديثاً من الذين يعتمد هو على حديثهم ، فمصر
والسودان قد علمت اليوم علماً ليس بالظن أن مفاوضات صدق —
بين ، كانت زلة وقى الله شرها ، وأن الله سخر النقراشي ليقيل
مصر والسودان من تلك العنة المردية ، وأن مصر والسودان قد
عزمت أمورها على أن لا تضع يدها في يد بريطانيا ما دام لها على
أرض وادي النيل ظل تستظل به أطعيا ، ونعالها ، وروحها —
وصنائعها أيضاً .

وخير لصدق باشا ومن كان على شاكلته أن يعلم أشياء
كثيرة ، فلا يغتر بنفسه في مهالك بريطانيا التي تطأ بأقدامها كل
من يخدمها إذا رأت في ذلك خيراً بنفسها . خير له أن يعلم أن
الزمن الذي كان هو فيه أحد أبطال السياسة ، قد انقلب كله
وذهب وعنى عليه الذي عنى على مآرب كثيرة . وخير له أن
يعلم أن الجيل الذي يعيش في هذه الأيام غير الجيل الذي كان
يرهب سوط الجلال ويخاف ومن السياط على أبدانه ، وخير له أن
يعلم أن العلم القليل الذي كان يذله الرجل فيتججج به ويخيل
إليه أنه صار عقلاً وحده ، قد حل محله عقل كثير لا قبل لأحد
بدفعه بعد اليوم . وخير له أن يعلم أن الذرة التي تنهيج اليوم
بالإخلاص لمصر والسودان ، خير من كل الدُرّ القديم الذي
زيفته بريطانيا وملأت قلبه نمرة وجاهاً وسلطاناً ، وخير له أن
يعلم أن دم أي صملوك مصري سوداني مخلص لبلاده ، قد صار
أكرم على مصر والسودان من دماء السادة الذين سادوا بالخيانة
والنفاق والخداع . وخير له أن يعلم في أول ذلك كله وآخره أن
احتقار مصر والسودان ، وإزدراء هذا الشعب النبيل ووصمه بأنه
لم يبلغ بعد المرتبة التي تحوّل أن يقيوا مكانه في العزة والكرامة
— لن يتفع بعد اليوم صاحبه والمتحدث به ، والعامل على تثبيتته
في أذهان من يخدمهم . وخير له أن يعلم أنه لا يزيد على أن يكون
فرداً من أفراد هذا الشعب لا أكثر .

ليس من همي مرة أخرى أن أتناول قول صدق بالنقد
أو التفنيد ، ولكن كل هي أن أدلّ ناساً من خلق الله الذي
نبتت لحومهم ، وجرت دماؤهم ، وامتلأت بيوتهم خيراً من ماء

النيل الذي يجمع مصر والسودان ، على أن شعب مصر والسودان
قد حزم أمره على أن يستأصل شأفة الماضي كله ويقطع دابر
النافقين المحتالين بغير سلطان أناهم ، وأنه قد أجمع عزمه على أن
يحطم سلاسل الاستعباد كلها ، وأنه لن يقف دون غايته رهبة
أو رغبة ، وأنه عرف أن الساسة قد خدعوه زمناً طويلاً ،
فأبما سياسي من القدماء ، ممن كان من صنائع بريطانيا أو من
المخدوعين بشرف بريطانيا ، تدول له شياطين نفسه بعد اليوم
أن يظن أنه أهدى من النقراشي وأعظم وأقدر ، وأنه بالغ مالم
يباشره النقراشي بالمفاوضة والمصارمة على حقوق مصر والسودان
فصيره أن ينال من بأس هذه الأمة الناهضة المتدفقة العارمة
شراً كثيراً كان أحوط له أن يلوذ منه بملاذ كريم ، هو أن
يستظل بظل الأمة التي ولدته وأنشأته وكرمه بالانساب إليها
فاذا أبي أحدهم إلا أن يطلب لنفسه مجدداً بدعوة بلاده إلى المفاوضة
أو خيانة بلاده بقبول عون بريطانيا له حتى يبلغ الوزارة كما بلغها
بعضهم من قبل على أسنة الحراب البريطانية ، فإنه سيعلم يومئذ
أن الشعب المصري السوداني أشد منه ومن بريطانيا بأساً وقوة
ومصارمة على الجلال ، وسيعلم أنه قد قدر نخب فامتحن امتحاناً
شديداً كانت له عنه مندوحة .

أيها الساسة القدماء ! احذروا غضبة الشعب ، فلكل شعب
غضبة كالنار المشعلة تأكل الأخضر واليابس ، وهذا أوان
غضبة مصر والسودان بعد أن عيس الثرى بيننا وبين بريطانيا ...

محمود محمد شاكر

إعلان

تقبل المطامات بإدارة المخازن
والشتریات بوزارة الزراعة بالدق لناية
الساعة الحادية عشر صباح يوم ١٥/٩/١٩٤٧
عن نوید ٤٠٠٠ رطل سلفات نيكوتين
لقسم وقاية المزروعات . ونغن النسخة من
الشروط والمواصفات ٣٠ مليا بخلاف
٣٠ مليا أجرة البريد . ٧٨٦٩